السودان ينزف والوساطة فشلت

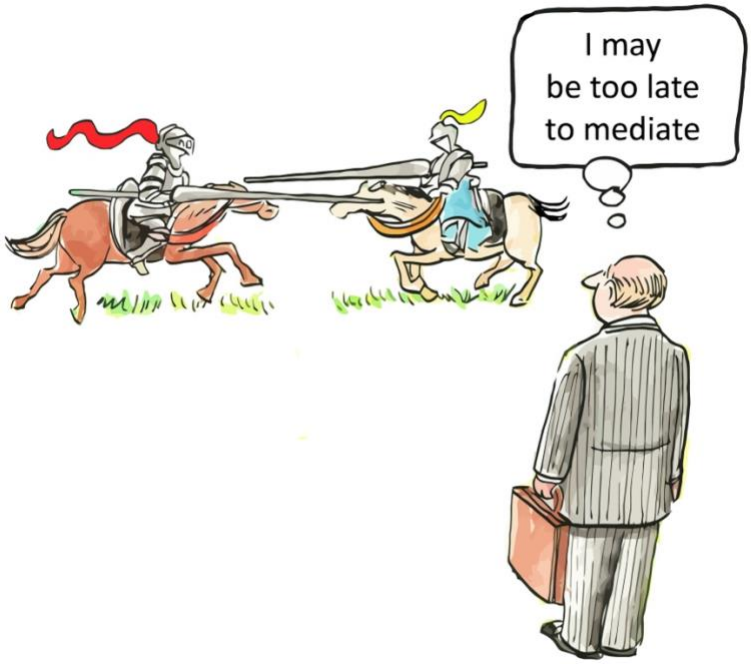

عبدالقادر محمد (عبدول)

كبير المستشارين السابق ورئيس مكتب وساطة السودان بالأمم المتحدة

2 مايو 2024

دخلت حرب السودان عامها الثالث المروع. فالمدنٌ في حالة خراب. والملايينٌ هُجّروا. وشبح المجاعةٌ يلوح في الأفق. وفكرة الدولة السودانية نفسها تنهار. ومع ذلك، وفي خضم هذه الكارثة التي تتكشّف فصولها، ثمة انهيارٌ آخر صامت يستدعي الاهتمام، وهو فشل الوساطة.

بصفتي شخصاً شارك بعمق – بصفة عضوٍ بارز في الوساطة السودان التي قادتها الأمم المتحدة – فأنا لا أتحدث باستخفاف، بل بغضبٍ وشعور بالإلحاح. فالوساطة كانت باهتة، وخجولة، وغير جادةٍ تماماً. السودان ينزف، وكان ردّ فعل العالم هو الانهماك في التقارير وعقد الاجتماعات بينما البلد يتداعى.

ليس في هذا القول تبرئةً للأطراف المتحاربة، بل أبعد ما يكون عن تبرئتهم. فالأطراف المتحاربة تتحمل المسؤولية الرئيسية عن تدمير السودان. إذ فضّلوا العنف على السلام، والسلطة على الإنسانية. وارتكبوا جرائم جسيمة، ومنعوا المساعدات الإنسانية، وغضّوا الطرف عن معاناة أهلهم. وسيُحاسبون على ذلك.

SUDAN TRANSPARENCY AND POLICY TRACKER

وتُشاركهم الحكومات الأجنبية - من كلّ حدبٍ وصوب - التي تدعمهم هذا العار. فأسلحة هذه الحكومات وتمويلها والغطاء السياسي الذي وفّرته أطالت أمد الحرب وشجّعت أمراءها. ويجب محاسبتهم أيضاً.

لكن هذا المقال، الذي يأتي في الذكرى السنوية الثانية القاتمة لاندلاع الحرب، لا يتعلق بأطرافها فحسب، بل يتعلق بنا - نحن الوسطاء - وعجزنا عن الارتقاء إلى مستوى التحدي التاريخي الذي نواجهه.

وساطة اسمية فقط

على مدى الأشهر الثمانية عشر الماضية، لم تُسفر ما يُسمى بالوساطة عن وقف إطلاق نار، ولا خارطة طريق، ولا عملية حقيقية. مجرد زيارات متقطعة، وبيانات مبهمة، وإحاطات جوفاء إلى مجلس الأمن تسلّط الضوء على المسؤوليات الجسيمة للأطراف المتحاربة عن المعاناة الهائلة التي ما يزالون ينزلونها بأهلهم، بينما يتجاهلون إخفاقات المجتمع الدبلوماسي أو يتغاضون عنها.

رغم أن الهيكل الأفريقي للسلم الذي وضعه الاتحاد الأفريقي والهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية (إيقاد) وُلِد من الضرورة والنوايا الحسنة، إلا أن الواقع القاسي المتمثل في حرب مُجزأة (متعددة الجبهات)، وزيادة التشابكات الخارجية، والكارثة الإنسانية ذات الأبعاد التاريخية قد تجاوزت هذا الهيكل. والتصورات التي شكلت عملية الاتحاد الإفريقي- الايقاد — مثل وجود كتلتين من الطبقة السياسية السودانية المتماسكتين، وإمكانية وجود بيئة إقليمية محايدة نسبياً، وإمكانية إجراء محادثات غير مباشرة تدريجية — تجاوزها التشظي المتزايد للجماعات المدنية والتدخل الفاضح لجيران السودان في النزاع.

تتولى اليوم قيادة جديدة زمام الاتحاد الأفريقي، على رأسها رئيس ذي معرفة راسخة بملف السودان. وأمام الاتحاد الأفريقي والإيقاد، اللذين كانا في طليعة الجهود متعددة الأطراف المستندة على المبادئ بشأن السودان، الآن فرصة - والتزام - لإعادة تأكيد قيادتهما وإدارة عملية سلام ذات مصداقية.

تعثرت العملية التشاورية التي تقودها الأمم المتحدة، ويتولاها المبعوث الشخصي للأمين العام إلى السودان، بشكل ملحوظ. ونظراً إلى الموارد البشرية والمالية المتاحة لها، كانت جهود الوساطة التي تبذلها الأمم المتحدة تحت قيادة مبعوثها الشخصي مخيبة للآمال للغاية. وترى جهات سودانية رئيسية أن محدودية مشاركة المبعوث تعكس عقلية غير جادة على الإطلاق لحل الأزمة السودانية المتصاعدة.

كان تفسير العملية للتفويض الممنوح لها ضيّقاً، واستراتيجيتها بسيطة. وحتى الآن، كانت النتيجة الرئيسية إنشاء آلية موازية تُنافس جهود الاتحاد الأفريقي والإيقاد، بدلاً من أن تُكملها، مما أدى إلى تجزئة الاستجابة متعددة الأطراف في الوقت الذي تشتد فيه الحاجة إلى التماسك. فانزلق ما كان يُؤمل أن يكون مركز ثقل للتنسيق إلى حالة من عدم الجدوى، ويتجسد فشل العملية في الدور المتراجع للأمم المتحدة، الذي جلبته على نفسها، في مؤتمر لندن بشأن السودان هذا العام.

كانت المسارات الثنائية الموازية – مثل تلك التي استضافتها القاهرة وجدة – تعمل بمعزل عن بعضها البعض، إذ افتقرت إلى التكامل مع العمليات متعددة الأطراف. وإسهاماتها في وقف العنف لا غنى عنها، لكنها لا تستطيع بمفردها أن تُنتج سلاماً شاملاً ومستداماً. ومثل هذه الدبلوماسية وحدها كفيلة بترسيخ الانقسام؛ ذلك أن القيادة متعددة الأطراف، التي تُنسق وتُوازن الجهود الثنائية بنشاط، ضرورية لإعادة بناء النظام السياسي السوداني المُمزق.

دعوة لإعادة ضبط كاملة

السودان لا يحتاج إلى مزيد من العمليات. بل يحتاج إلى هدف وضغط وشجاعة سياسية.

ويجب أن نُدرك أن التصميم الحالي للوساطة قد فشل. والاستمرار في الخطوات التدريجية والطموحات الدُّنيا يعني قبول تفكك السودان باعتباره أمراً محتوماً. ولا يتطلب الأمر أقل من إعادة ضبط شاملة تقوم على ثلاثة ركائز:

- أولاً، يجب إنشاء **إطار وساطة واحد موحد** تحت القيادة السياسية للاتحاد الأفريقي/الايقاد، بدعم قوي وموثوق من الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية والاتحاد الأوروبي - ليس بوصفهم أطراف ثانوية، ولكن بوصفهم شركاء أساسيين. ويجب أن يُفسح النهج الحالي المُشتت، بتداخل الاختصاصات وعدم تنسيق المبادرات، المجال لآلية مُدمجة قادرة على العمل الاستراتيجي.
- ثانياً، يجب **تنسيق المبادرات الثنائية بغية دعم الإطار متعدد الأطراف**. إذ تتمتع الأطراف الثنائية، خاصة القوى الإقليمية الرئيسية، بالنفوذ اللازم للمساعدة في وقف القتال. ودورها لا غنى عنه - لكن يجب استخدامه بوصفه جزءاً من استراتيجية سياسية أوسع نطاقاً يُمكنها نقل السودان من حالة حرب إلى سلام مستدام.

  يتطلب وقف الحرب تجميد الدعم العسكري الذي يُغذيها، وجمع الأطراف المتحاربة على طاولة المفاوضات. لكن لا يمكن رسم مستقبل يلي وقف إطلاق النار إلا من خلال عملية سياسية تتمتع بالشرعية ومتعددة الأطراف، ويملك زمامها السودانيين.
- ثالثًا، **والأهم من ذلك، يجب أن يستعيد المدنيون السودانيون زمام عملية السلام**. ولا يمكن دفعهم إلى الهامش بينما تُقرر العواصم الأجنبية مصير السودان. ويجب عقد مؤتمر سلام يُنظمه السودانيون ويحظى بدعم دولي - يجمع التشكيلات السياسية والمجتمع المدني والشباب والجماعات النسائية ومجتمعات النازحين – من أجل صياغة أجندة سلام مشتركة.

لا يمكن اختزال السلام في عملية تقودها النخبة أو تُفرض من الخارج. إذ يجب أن تكون هذه العملية راسخة في الواقع الاجتماعي لسودان مزّقته الحرب والنزوح والصدمات. ويجب أن يكون السلام المجتمعي – إعادة بناء الثقة والمشاركة المدنية والحوار السياسي الشامل - في صميم أي استراتيجية وساطة.

حان وقت القيادة والشجاعة

الحرب في السودان ليست مجرد نزاع أفريقي آخر. فهي اختبار لقدرة النظام الدولي، خاصةً قدرة المنطقة العربية والأفريقية، على العمل بجدية عندما تواجهها معاناة إنسانية كارثية. فالسودان لا ينزلق إلى أزمة؛ بل ينزلق مُباشرةً نحو احتمال فشل الدولة والتقسيم. وكلما طال تشبث جهود الوساطة بافتراضات قديمة، وأطر عمل مجزأة، وطموحات محدودة، كلما اقتربنا من كارثة لا يمكن تصورها، أي تقسيم السودان.

تتطلب إعادة ضبط المشهد بنجاح أكثر من مجرد تعديلات فنية. بل تتطلب شجاعة سياسية من جميع الأطراف:

- شجاعة من الاتحاد الأفريقي/ الايقاد لاستعادة زمام القيادة والتصرف بحزم.
- شجاعة من الأمم المتحدة لتجاوز التفويضات المحدودة وتبني استراتيجية سياسية فعّالة لدعم المبادرات متعددة الأطراف.
- شجاعة من المدنيين السودانيين للتوحد، والتنازل، وتولي زمام إدارة مصير بلدهم.
- شجاعة من الأطراف الثنائية لاتخاذ المبادرات دعماً لإطار عمل متعدد الأطراف.

وقبل كل شيء، تتطلب إعادة الضبط التواضع بغية الاعتراف بالفشل، والتصميم على بناء شيء أفضل.

هذه لحظة الحقيقة

الحرب في السودان وصمة في ضمير العالم. فقد اختار المتحاربون الدمار، وأجّج داعموهم الخارجيين الحرب. لكننا – نحن الوسطاء والمجتمع الدولي - فشلنا في مواجهتها بالجدية التي تتطلبها اللحظة الراهنة.

ونحن مدينون لشعب السودان بأكثر من مجرد الكلمات. نحن مدينون لهم بجهد سلام فيه من القوة والتركيز والتصميم ما يتناسب مع وحشية الحرب.

السودان ينزف. ولتكن هذه المرحلة من الحرب نقطة التحول - حيث نتصرف أخيراً بما يعكس اهتمامنا، ونبدأ بالتوسط بقناعة حقيقية.